

تجليات التفاعل النصي في الرواية الجزائرية المعاصرة
(رواية بوح الرجل القادم من الظلام لإبراهيم سعدي أنموذجاً)
أ. ريمة كعبش
جامعة منتوري 1 - قسنطينة

الملخص:

إن أي نص مهما كان جنسه قصة، رواية، شعر، مسرحية،... يقيم علاقات نسب مع نصوص أخرى (تاريخية، أسطورية، شعبية، دينية، أدبية، علمية، فنية...) وهذه العلاقات تدل على التفاعل النصي (L'Hypertextualité) الذي قال به "جيرار جينيت" (Gérard Genette) في أطروحته التنظيرية. الهدف من هذه الدراسة هو بيان المتفاعل النصي الذي حفلت به رواية "بوح الرجل القادم من الظلام"، واستراتيجيات توظيفه و اشتغاله، والدلالات التي حققها استيعابه و امتصاصه.

Abstract :

Any text whatever his sex: story, novel, poetry, drama,... maintains the relationships with other texts (historical, mythical, popular, religious, literary, scientific, artistical ...), and this relationships indicate the text interaction who told him (Gérard Genette) in his hypothesis theses.

The objective of this study is to display the text interaction that a novel

" Revelation of the man who coming from darkness" was ful in them, and strategies employed and functioned, and semantic which he achieved assimilate and absorpti

تقديم:

تعتبر الرواية أكثر الأجناس الأدبية قابلية لتمثل المنجزات النصية السابقة عليها أو المعاصرة لها، بل تعد متحفاً لمختلف تلك المنجزات (الدينية، الأسطورية، الشعبية، التاريخية، العلمية، الفنية، الأدبية....) و هي تلجأ إليها - خاصة - إذا كانت تنزع إلى التجريب و التجديد على مستوى مضمونها و متنها السردي. و الرواية الجزائرية المعاصرة على وجه الخصوص، صارت أكثر نزوعاً إلى التجريب و التنويع إلى الحد الذي صار يطلق عليها النقاد اسم "الرواية التجريبية".

إن "جيرار جينيت" (Gérard Genette) في حديثه عن التفاعل الذي يقوم بين منجز سردي ما و منجزات سردية أخرى، قد حدد خمسة أنواع لهذا التفاعل أو المتفاعل و هي: التناص، المناص، الميتانص، النص اللاحق، معمارية النص. يقصد بالتناص (Intertextualité): حضور نص في آخر دون تغيير له. و المناص (Paratexte): هو الذي يجمع بين مختلف النصوص، و يتجلى من خلال العناوين، و العناوين الفرعية، و المقدمات، و الهوامش، والصور، وكلمات الناشر...

يعني بالميتانص (Métatextualité): تضمين النصّ وحدات نصيّة سابقة عليه دون تنصيص عليها.

و النص اللاحق (Hypertexte): هو تحويل نص سابق أو محاكاته. أما معمارية النص (Architextualité): فهي التي تحدّد الجنس الأدبي للنصّ: شعر، رواية، قصة...¹

و قد بدت لنا رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" عند القراءة و الدراسة أكثر امتلاءً بهذه المتفاعلات، لكن منها ما هو ظاهر بيّن، يسهل على الدارس القبض عليه، و الإمساك بتلابيبه، و منها ما هو باطن خفي يستدعي الحفر في طبقات المتن السردي لاستنطاقه، و بسطه بالتحليل.

تمظهرت المتفاعلات النصية في الرواية محل الدراسة على مستويين كبيرين: على مستوى جهاز العنوان، و على مستوى الشخصية الحكائية، و إنّ أول ما نبدأ به هو المستوى الأول كونه يمثل واجهة العمل السردية و من ثمة يلح علينا في الابتداء به.

1/ العنوان:

يعتبر العنوان كما يرى "جيرار جينيت" (Gérard Genette) من "أهم عناصر المناص" (النص الموازي)²، و تبعا لهذه الأهمية رأينا أنه من الواجب الوقوف عنده و التأمل فيه قبل اقتحام عوالم الرواية، و ذلك بما يتوافق مع معطيات الدراسة، أي من حيث علاقته بالمتفاعلات النصية، فهو " لا يفصل بين هذه المعطيات و إنما يؤسس لوحدة عامة يجمع فيها بين كل من الإحالة و الشعرية و منظور القراءة."³

و كما يبدو من خلال الكلمات المكوّنة لعنوان رواية "بوح الرجل القادم من الظلام"، أن أول كلمة تكوّن هي كلمة "بوح"، و التي تفيد الإفصاح و الإفشاء بأمر ما أو أمور معينة، لم يكن لها المجال للبروز إلا من خلال الكتابة الروائية، و بالتالي فإن هذه الكلمة ذات صلة وثيقة بالذات، لكن ما الذي تحيل إليه أكثر؟

و كمحاولة للإجابة عن هذا السؤال نقول: إنها تحيل على :

● استثمار جنس السيرة الذاتية:

تعود بنا كلمة "بوح" إلى جنس من الأجناس الأدبية القديمة، هو: السيرة الذاتية، إذ تتناص معه، و تعبّر عن إفادة الكاتب من معينه بما يخدم موضوع روايته، فهذا الرجل الذي يبوح و الذي هو راوي و بطل الرواية "منصور"، يحكي لنا بضمير المتكلم سيرة حياته الماضية ابتداء من مرحلة الطفولة المحددة بسن الثانية عشرة سنة، "لا أجد شيئا كثيرا أقوله عن نفسي قبل بلوغي الثانية عشرة"⁴، إلى غاية مرحلة الشيخوخة غير محددة السن و إنما تدل عليها كلمة "الشيخ"⁵. الحكي يوحى لنا بتوافقه مع أسلوب حكي السيرة الذاتية، و يعد هذا التوافق تمثلا فنيا للمتفاعلات النصية في نوع من أنواعها، هو " معمارية النص" (Architextualité)، التي لا توقّر للرواية (مصدر الدراسة) الخصائص المميزة للجنس الروائي فحسب، و إنما تعبّر عن انتمائها إلى الجنس السير ذاتي، لتغدو الرواية ككل " نصا جامعا" * للإثنين معا.

وظائف عتبة العنوان:

يؤدي العنوان عدة وظائف، حدّدها "جيرار جينيت"، و هي كالآتي⁶:

1. التعيين.
2. تحديد المضمون.
3. إغراء الجمهور.

القارئ للمدونة الروائية، يرى بأن كل الوظائف التي ذكرها "جينيت" تجتمع في عنوانها، إذ يؤدي وظيفة تعيينية، تعيّن نوع النص بأنه سيرة ذاتية لبطله "منصور"، و يؤدي كذلك وظيفة تحديدية تدلّل على مضمون النص بأنه سيتعرض لفترة مظلمة من حياة البطل، و ذلك بالاستناد إلى كلمة "الظلام"، التي تخوّلنا بدورها لأن نحكم على العنوان بأدائه للوظيفة الإغرائية، فهي بالإضافة إلى كلمة "بوح" تلفت انتباهنا و تجعلنا نتساءل: عن أي ظلام سيتحدث الرجل؟ و ما الذي سيبيح به؟

تغرينا الكلمة، و تثير فضول القراءة لدينا من أجل معرفة ما الذي سيخبر به الرجل، تسوقنا بلهفة للاطلاع على المضمون، إذ بعد تجاوزنا لفضاء عتبتها، و ولوجنا فضاء الرواية العام يتبين لنا أنها لا تحيل فحسب على العشرية السوداء التي عرفتها الجزائر في سنوات التسعينيات(التاريخ)، و إنما تحيل أيضا على الظلام الذي استبدّ في نفس الرجل/البطل "منصور" جرّاء الخطايا و الذنوب التي ارتكبها مع النساء في الماضي، و التي جعلته يتخذ الرواية/الكتابة وسيلة ليحكي عنها كممارسة للتطهير و المكاشفة بعد أن فشلت كل محاولاته في الخلاص من تداعياتها عبر الذاكرة.

و قد توصلنا إلى هذه الدلالة من خلال التداول الكثيف لكلمة "الظلام" في علاقتها بنفس البطل على مستوى المتن الحكائي، بيّن هذا التداول بأن العنوان لم يقف عند حدود الغلاف، و إنما أصبح " المحور الذي يتوالد و يتنامى و يعيد إنتاج نفسه وفق تمثلات و سياقات نصية تؤكد طبيعة التعالقات التي تربط العنوان بنصه و النص بعنوانه"⁷ من حيث المضمون و درجة المطابقة، هذه الأخيرة التي يراها "جيرار جينيت" ضرورية للغاية، بل و يعدّها وظيفة بحد ذاتها.

يمكننا القول في نهاية تحليلنا لعنوان الرواية، بأنه قد اتخذ لنفسه وضعاً خاصاً في التشكل و الاشتغال الفني و الجمالي، لقد مثّل المتفاعلات النصية في أنواعها المختلفة، و مثّل أيضاً نواة الحكاية و بورتها التخيلية الأساسية، بل "تضمن العمل الأدبي بأكمله".⁸

2/ الشخصية الحكائية:

تعتبر الشخصية الحكائية مكوناً بنائياً مهماً في الرواية، لا يمكن للكاتب الاستغناء عنه أبداً، فهي "التي تصنع في أغلب الأحوال قصص الكاتب وليس الحدث (...)" لها دورها الفني المتناغم مع بقية عناصر التشكيل، و ليس ذلك الدور إلا دور الكاتب ذاته (...). الذي (...) يستعذب لعب الأدوار و تقمصها واقعا و فناً في آن.⁹ و الرواية "على قدرة براعة الكاتب في خلق شخصياتها يتسم عمله بالجودة"¹⁰، تتمثل براعته و قدرته أكثر وضوحاً و جلاءً، في تجسيده لـ "نماذج فنية تشاكل النماذج الموجودة في واقع الحياة إنه يتمثل هذه الشخصيات و أفكارها، و يجري على لسانها المعادل الفني لواقعها الحرفي".¹¹

تردح رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" بالشخصيات الممثلة لشرائح اجتماعية مختلفة، لها ما يماثلها في الواقع الموضوعي، فمنها الغنية و الفقيرة، و منها المثقفة و الجاهلة، و منها كذلك المريضة نفسياً، و السوية أخلاقياً إلى غير ذلك من الشرائح.

و كما يبدو، أن كاتب الرواية قد اتخذ بعض الشخصيات ليسقط عليها متفاعلاته النصية، خصوصاً على المثقفة منها، فمثلاً تعتبر شخصية "سيلين" في نواحي معينة لسان حال الكاتب، اتخذها ذريعة فنية لقول بعض ما يريد قوله.

و قبل أن نبين كيفية اشتغال المتفاعلات على هذه الشخصية فإنه ينبغي أولاً أن نعرّف بها اعتماداً على نمطي السرد الأساسيين¹²: الإخبار، و العرض اللذين تبناهما الكاتب في تقديمه لها.

"سيلين" في الرواية فتاة مثقفة، متشعبة بالأفكار الفلسفية السياسية لكل من ماركس و لينين و تروتسكي و روزا لوكسمبورغ...، تعرّف عليها البطل في الجامعة

أيام كان طالبا في الطب بفرنسا، و قد أسهمت في تثقيفه و رفع مستوى وعيه السياسي، و قد اعترف بفضلها الكبير عليه بقوله: "هذا شيء في الحقيقة لم أكن أعرفه. لأنني لم أكن قد بلغت بعد مستوى مرضيا من الوعي السياسي".¹³

لم تقف "سيلين" عند ذلك الحد، و إنما انشغلت بتحليل توجهه الفكري و تكوينه السياسي، إذ اعتبرته بورجوازيا صغيرا، من منطلق أنه يؤمن بالله. يقول البطل: "العائق الأكبر الذي واجهها معي، مانعا إياها عن أن تمنحني تركيتها السياسية، هو عدم وصولها إلى إقناعي بعدم وجود الله. كان ذلك هو الأمر الأساسي الذي جعلها في الواقع تستنتج أن لي عقلية بورجوازية صغيرة".¹⁴

بهذا، لم تكن "سيلين" شخصية مثقفة فحسب و إنما كانت شخصية مثقفة و فاعلة في آن، فما كانت تدرسه تطبقه على أرض الواقع، بدراستها لشخصية البطل، و شخصيات أخرى سنذكرها فيما يلي، مستفيدة مما قرأته في الكتب من أفكار لمختلف المفكرين و الفلاسفة (ماركس، و لينين،...) الذين نعتبرهم مؤشرات المتفاعلات النصية، أي أن الكاتب اعتمد على كتبهم و نصوصهم (و التي قد تكون عناوينها كالاتي: العمل المأجور ورأس المال لكارل ماركس، الدولة والثورة للينين، الطبقة و الحزب و القيادة لتروتسكي... إلخ) في تأييد أفكار شخصيته.

و استخداما لمقولات "جيرار جينيت"، "النص السابق" و "النص اللاحق" (Hypertexte)، نجد أن كاتب رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" قد تمثل عن جدارة هذه المقولات (أي المتفاعلات النصية)، فالنص السابق هو تلك المعلومات المقتبسة من الكتب (كتب لينين و ماركس،...)، و النص اللاحق هو الرواية التي جسدت تلك المعلومات، هذه الأخيرة التي يبدو و كأنها - بل من المؤكد - من لدن الكاتب و ليست من لدن الشخصية "سيلين"، فما الشخصية إلا مجرد وسيلة لإيصالها للقارئ و محاولة تبسيطها، فإذا اتبعنا تصنيف "فيليب هامون" (Philippe Hamon) للشخصيات الروائية، نجد أن "سيلين" تندرج في إطار "الشخصيات الواصلة الناطقة باسم المؤلف"¹⁵ و المعبرة عن أفكاره.

أبعاد الفكر الفلسفي السياسي:

كل متفاعلة نصية موظفة في الرواية لها دلالة و معنى، إذ تنهض بآدائها لوظائف و أبعاد معينة، و قد أدى توظيف المتفاعلات الفلسفية بعدا أيديولوجيا سياسيا. كما يجد القارئ، بأن توظيف الكاتب لشخصية "سيلين" كان توظيفا ثريا جدا، فهي لم تسهم في توعية البطل فحسب و إنما في توعية القارئ أيضا، لأنها قامت بتبسيط المعلومات عن كل الطبقات الاجتماعية و التوجهات الفكرية.

و الجميل ما في الأمر، أن الكاتب - من خلال سيلين - استخدم عدة شخصيات و جعل كل شخصية تعبر عن طبقة معينة و توجه معين، و كأنه يريد التمثيل حتى يستتي للقارئ أن يفهم و يستوعب جيدا، منه أن "نسرين شيراز" الفتاة الباكستانية التي عرفها البطل في فرنسا أيضا، " تنتمي إلى الطبقة الرأسمالية البورجوازية ذات الاتجاه الرجعي و الفاشي الموالي للإمبريالية العالمية"¹⁶، لأن "والدها عسكري و له رتبة جنرال و صاحب مصانع في باكستان"¹⁷، و أن السيدة "كلير ردمان" "نتاج الرأسمالية الكولونيالية"¹⁸ لأنها "من الأقدام السوداء"¹⁹، أي استعمار.

و الواضح أن الكاتب يريد أن يجعل من روايته وسيلة للتعليم أو تبسيط العلم و المعرفة، فما قرأه من الكتب (نظريا) يبسطه و ينقله للقارئ حتى يتمكن من فهمه بسهولة و يسر بعيدا عن الإطالة، و الغموض، و الضبابية، و التعقيد، كما أنه واضح أنه استغل وظيفته كأستاذ للإفهام و التبيين، خاصة عندما اعتمد التمثيل و التطبيق على ما يقول من خلال تلك الشخصيات التي سبق و أن ذكرناها، و القارئ في الحقيقة يستفيد، خاصة الذي ليس له خلفية فكرية عن تلك التصنيفات الطبقية و لم تتح له الفرصة للاطلاع على أفكار كل من لينين و ماركس و غيرهم.

هكذا تم تمثل المتفاعلات النصية من خلال هذه الشخصية "سيلين"، و أدت في الرواية عدة أبعاد، يعتبر التعليم أهم بعد فيها، فرواية "بوح الرجل القادم من الظلام" رواية ثرية و مفيدة جدا كونها تبتغي التعليم و التنوير سبيلا.

• تجريب استلهاام التاريخ:

يعد استلهاام التاريخ أحد آليات التجريب المعتمدة بقوة في الرواية الجزائرية المعاصرة، و بالتالي يعد وجها من وجوه التناص (Intertextualité) أو التفاعل النصي، و قد برز بوضوح في الرواية محل الدراسة، بل وفاض به السرد الروائي. تجلّى من خلال الراوي بالتحديد. سنبين طرائق اشتغاله و فنيات توظيفه.

الراوي و الإحالة على التاريخ:

يحكي الراوي بالتوازي عن ماضيين، ماض متعلق به في فترة شبابه، و ماض متعلق بوطنه في مختلف فتراته التاريخية، و إن أكثر ما يهمننا في الدراسة هو ماضي هذا الأخير (ماضي الوطن)، و كيف تم تناوله، علما أن طريقة الروائي في تناوله للتاريخ تختلف قليلا عن طريقة المؤرخ، فإذا كان الأخير يعتمد الوثيقة التاريخية في تدوين الأحداث، فإن الأول يعتمد عليها لكنه لا يلتزم بها تماما. " و هنا ميزة الروائي الناجح الذي يعتمد التاريخ منطلقا دون أن يجعله قيّدا يحد من حرية حركته في الزمن فيصور الأحداث و الأشخاص تخييليا جامعا بين التاريخ و التخيل".²⁰

تتناص الرواية مع التاريخ في عدة نقاط و مواضع حكائية، و يتشبه الكاتب الروائي بالمؤرخ في سرده لأحداث الوطن الكبرى التي وقعت في زمن الاستعمار، و في زمن الاستقلال، و ذلك بذكره لتاريخ وقوع الحدث، و مجريات وقوعه، لكنه يختلف عن المؤرخ في التعبير عنه، سنظهر كيف تم ذلك.

ففي حديثه عن الزمن الأول مثلا، (زمن الاستعمار) وجدناه قد أورد حدثا تاريخيا مهما، ذكره بأرقامه، هو الإضراب العام الذي أعلنته جبهة التحرير الوطني، أو مظاهرات " 11 ديسمبر 1961"²¹، حيث سرد لنا كيف خرج الشعب الجزائري إلى الشوارع للتظاهر مطالبا بخروج المحتل الفرنسي من البلاد، و كيف تم قمعه بالسلاح، مبيّنا مدى جبروت السلطة الاستعمارية، و عدم اعترافها برغبة الشعب الجزائري في تقرير مصيره.

و قد اتخذ الكاتب شخصية الراوي واسطة للتعبير عن الحدث، إذ كان حينها تلميذا في الثانوية، يدرس لدى الفرنسيين، و تم فصله من الدراسة، بسبب تغيبه و تحججه بالمشاركة في المظاهرات.

و لعلّ* الكاتب في سرده لذلك الحدث التاريخي قد اعتمد على نص سابق، هو النص التاريخي، لكنه لم يطبقه بحذافيره، و لم ينقل لنا مادته بطريقة علمية كما يفعل المؤرخ، خوفا من أن تتحول الرواية إلى كتاب علمي.

و عن الزمن الثاني، فقد أورد لنا حدثا تاريخيا آخر شديد الأهمية سبق زمن الأزمة و قاد إليها، هو مظاهرات " أكتوبر" ²² 1988 ، إذ تشبه مرة أخرى بالمؤرخ، و عرض لنا مشهد خروج الشباب الجزائري إلى الشارع في مظاهرات سلمية، مطالبا بحقوقه المشروعة في العمل.

استعان الكاتب في عرضه التاريخي ذاك بشخصية "عبد العزيز" (ابن الراوي)، الذي مثل الشخصية "الشبه تاريخية" كونه صنع التاريخ(على سبيل المجاز) بصناعته لحدث التظاهر و خروجه للمطالبة بالعمل، و قد كانت نهايته مأساوية جدا، حيث أنهى حياته بالانتحار، بعد أن جويته المظاهرات بالقمع السلطوي؛ قمع رجال الأمن، و قد جسّد الكاتب معاناة الراوي و ألمه الداخلي على موت ابنه بطريقة تثير لدى القارئ الشعور بالحزن و الأسى.

لكن ينبغي التنويه إلى أن الكاتب لم يذكر لنا تاريخ هذا الحدث كاملا على بساط الرواية، و اكتفى بالإشارة إلى جزء منه فقط (أكتوبر)، و كأنه يخاطب قارئاً عارفاً بالتاريخ يمكنه النقاط تلك الإشارة و إتمامها.

عبر الكاتب عن الأحداث التاريخية بطريقة فنية جمالية، طوّع خلالها شخصياته الروائية للحديث عما حدث. و هنا يتحقق ما قال به الناقد المصري "عبد الفتاح عثمان": "إن المؤرخ يروي ما حدث بأسلوب تقريرية ينقل فيه الأحداث من الخارج بينما الروائي يعبر عما حدث بأسلوب فني يستبطن فيه الذات، و يعبر عن روح الإنسان و معاناته و رغبته في التغيير، فالمؤرخ يخبر عن الحدث، بينما الروائي يعبر عن الحدث و فرق كبير بين الأسلوبين".²³

إن احتشاد الرواية بالأحداث التاريخية المشفوعة بالأرقام، و المنصوص عليه في التاريخ بوصفها نقولا حرفية عن مصادرها، يجعلنا ندرجها في نوع التناص التاريخي، لأنها من الخصائص المميزة له، و إن كان ذكر تلك الأرقام يؤثر قليلا على الرواية و يؤدي كما يقول: "روجر آلن" (Roger Allen): "إلى التقليل من المزايا الفنية للرواية ككل"²⁴.

و إن كان القارئ يجد سهولة في تبين المتفاعلة النصية التاريخية، لأنها واضحة المعالم، و يؤكد على سهولتها ذكر أرقامها و تواريخها عبر المتن السردي، فإنه في بعض الأحيان يمر ببعض الأحداث التاريخية التي لم تذكر أرقامها فيجد صعوبة في التوصل إلى تاريخ وقوعها. و يظل يستأجل في قرارة نفسه: متى وقع هذا الحدث؟ و كمثال على ذلك، نشير إلى هذا الحدث الذي سبق الأزمة و أدى إليها أيضا، و هو حدث إلغاء السلطة لنتائج الانتخابات التي فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ، فبعد هذا الحدث مباشرة وقعت الأزمة و عاث الإرهاب في الأرض فسادا و تقتيلا. يقول الراوي: "رئيس مصلحة في بلدية"عين..."، إثر فوز الجبهة الإسلامية بالانتخابات المحلية، كان أول منصب و أول عمل شغله في حياته احتله إلى غاية الانتخابات التشريعية التي فازت بها الجبهة، تلك الانتخابات التي ألغيت من أجل حماية الديمقراطية و الحيلولة دون العودة إلى القرون الوسطى أي اضطلع به إلى يوم أن اختفى"²⁵.

إن القارئ و هو يقرأ هذا المقطع السردي، لا يكاد يتبين له في البداية على أنه يتضمن حدثا تاريخيا، لأنه جاء مندغما بالحديث عن المهنة التي شغلها "عبد اللطيف" قبل أن يصير إرهابيا، ناهيك عن أنه لا يوجد ما يؤشر عليه، إذ أن النصّ خال تماما من الإشارات الدالة على ما يُعرّف بـ"الفضاء النصّي" (L'espace Textuel)²⁶ الذي تُعدّ تغيّرات الكتابة المطبعية إحدى السمات الدالة عليه، فيمر عليه مرور الكرام، لكنه عندما يعود أدراجه ليتدبر فيه، يجد بأنه حدث تاريخي تم عرضه بطريقة ضمنية تستدعي إعمال الفكر و العودة بالذاكرة إلى الوراء*، و هنا يبدو أن الكاتب يخاطب قارئاً مثقفاً له خلفية تاريخية جيدة . " إن ذلك يذكرنا بدعوة " مايكل ريفاتير" (Rifatterre Michael)

لضرورة وجود ما يمكن أن نسميه بالقارئ المتفوق، أو ما تطلق عليه "كيودي ليفيز" ذوي ثقافة رفيعة²⁷، و القارئ إذا لم يكن عارفا بالتاريخ و لم يكن مطلعاً عليه فإنه يكن في حيرة من أمره، مما يضطره إلى اللجوء للكتب الرسمية (التاريخية) لمعرفة زمن وقوع الحدث و التثبت منه.

و عندما لا يوجد في النص ما يؤثر على المتفاعلات النصية التاريخية، و ما ينص عليها في الهامش، أو في المتن، فإننا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام الميتاتكس (Métatextualité) الذي يتطلب قارئاً مزوداً بحصيلة معرفية مميزة ليتمكن من التعرف عليه.

أبعاد التاريخ:

تحاول المتفاعلات النصية التاريخية الموظفة في الرواية أن تؤدي بعداً تاريخياً تعليمياً، يذكرّ الأجيال القارئة بالماضي و أحداثه الجسام، لكنها لا تكون فاعلة أحياناً، عندما لا تمكن القارئ من التعرف على أسباب الحدث، و زمن وقوعه، و ذلك حفاظاً على فنيته و جماليتها.

● جمالية توظيف الشعر:

وظفت الرواية محل الدراسة على لسان البطل مقطعاً شعرياً شهيراً ينتمي إلى العصر الجاهلي، و هو: "اليوم خمر و غدا أمر"²⁸ لصاحبه "امرئ القيس"، و ذلك في سياق حديث البطل مع الفتاة اليهودية "سيلين" عن الحرب التي سيشنها العرب ضد إسرائيل في سنة 1967*، و قد جاء ذكر ذلك المقطع موائماً للحالة التي كان عليها (حالة السكر)، و للموضوع الذي كان بصدد الحديث عنه (الانتقام من اليهود و التوعد بالهزيمة) مثلما فعل "امرئ القيس" في قديم الزمان، عندما أعلن و هو في حالة سكر عن رغبته في الانتقام لأبيه من قبيلة بني أسد التي اغتالته.

أبعاد الشعر:

و فضلاً عن أن تلك المقولة أو المتفاعلة النصية الشعرية تنتمي إلى حقل التناص، على اعتبار أن الكاتب/الراوي نقلها كما هي من نصوصها الأصلية (الديوان) دون تغيير أو تحريف، ناهيك عن أنه أحال إلى قائلها داخل المتن الروائي، فإنه يمكن

إدراجها أيضا في إطار "المصاحبات الأدبية" (Paralittératures) أو "الاستشهادات الأدبية"²⁹، التي تدخل في بنية نصية معينة، لا لتؤدي بعدا جماليا، تعريفيا، تثقيفيا فحسب، و إنما لتؤدي أبعادا سياسية أيديولوجية، تدل على كره الكاتب لليهود و غطرستهم.

• استدعاء القرآن الكريم:

استدعت الرواية مصدر الدراسة إلى متنها الروائي عدة متفاعلات تنتمي إلى القرآن الكريم، و تعبّر عن الميثانص، إذ لا يوجد عليها تنصيب و لم يتم الإحالة إلى مصدرها، كما تعبّر أكثر عن النص اللاحق، لأنها لم ترد كما هي، في أصولها بالذات، في نصها السابق، و إنما طرأت عليها بعض التغييرات، على مستوى الشكل خصوصا، نذكر مثلا عبارة: "لن يحدث لنا إلا ما كتب الله لنا"³⁰ التي وردت على لسان "ضاوية" زوجة البطل، و التي تبدو مقتبسة من الآية القرآنية: "لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا". الملاحظ أن الآية المحورة و المنحازة عن أصلها لم يطرأ عليها تحويل كبير، سوى ما ظهر على مستوى كلمة "يصيبنا"، التي تم تعويضها بكلمة "يحدث"، فقد احتفظت الآية في الرواية بمضمونها و معناها، و القارئ بسهولة يمكنه التعرف إليها إذا كان قارئاً للقرآن.

عامة، تتسم مجمل المتفاعلات النصية القرآنية بتماهيها مع السرد كما لو أنّها منجز الرواية، وليست منجز نصوص سابقة عليها، و تأتي الأنواع (الميتانص و النص السابق) متداخلة فيما بينها، تدخل في علاقة مع بعضها البعض.

أبعاد القرآن الكريم:

إن الغاية من إيراد تلك الآية في الرواية، هو تعبير الشخصية عن إيمانها بالقضاء و القدر خيره و شره، حيث وردت في سياق الحديث عن التفجيرات التي كانت تطال الوطن في ذلك الزمن العصيب (العشرية السوداء)، زمن كان الإنسان الجزائري يخشى على نفسه من كل شيء، و قد تم ذكرها للتخفيف من وطأة الخوف من القتل على يد الإرهابيين، و هنا جاءت الآية للدلالة على أن كل شيء بقضاء و قدر مهما كان

الوضع و الحال، و على القارئ أن يعي هذا جيدا، فالآية ليست ذات بعد ديني فحسب، و إنما ذات بعد نفسي توعوي، تبعث على الراحة و الطمأنينة.

خلاصة:

صفوة القول ومحصلة الدراسة أن رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" قد استحضرت مختلف المصادر و المرجعيات (الأدبية، الفلسفية، التاريخية، الدينية)، و تمثلت فنيا كل أنواع المتفاعلات النصية (المناص، التناص، الميتانص، النص اللاحق، معمارية النص)، و قد حاولنا أن نبين كيفية اشتغالها والدلالات العميقة التي تدفقت منها، فضلا عن الأبعاد و الوظائف التي أدتها و التي نراها شديدة الأهمية (التعليمية، التثويرية، التأريخية، الأيديولوجية، الوعظية التوعوية...).

هوامش الدراسة:

¹ نضال صالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001،

ص 211

² عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم: سعيد يقطين، ط1، الدار

العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2008، ص 65

³ سليمة عذراوي: الرواية و التاريخ (دراسة في العلاقات النصية، رواية العلامة لابن سالم حميش

نموذجا)، رسالة ماجستير، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2006، ص 74

⁴ إبراهيم سعدي: بوح الرجل القادم من الظلام، ط1، دار الآداب، بيروت، لبنان، 2002، ص 13

⁵ المصدر نفسه، ص 236

* النص الجامع، مصطلح خاص بـ "جيرار جينيت" و قد جاء مرادفا لمصطلح معمارية النص، للدلالة

على أنه يجمع بين مختلف النصوص و الأجناس الأدبية الأخرى = ينظر: عبد الحق بلعابد، عتبات، ص

⁶ عبد الحق بلعابد: عتبات (مرجع سابق)، ص 73-74

⁷ عبد الفتاح الحجمري: عتبات النص (البنية و الدلالة)، ط1، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، 1996، ص17

⁸ المرجع نفسه، ص 17-18

⁹ أحمد زلط: رؤية تحليلية في الأدب القصصي و جماليات النص، (د/ط)، هبة النيل العربية للنشر و التوزيع، (د/ت)، 2008، ص65

¹⁰ طه وادي: حركات التجديد في الأدب العربي، (د/ط)، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة، 1975، ص181

¹¹ عبد الفتاح عثمان: بناء الرواية (دراسة في الرواية المصرية)، (د/ط)، دار التقدم، القاهرة، 1982، ص260-261

¹² نضال صالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص 186

¹³ الرواية، ص 179

¹⁴ الرواية، ص ن

¹⁵ محمد عزام: شعرية الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 12-13

¹⁶ الرواية، ص180

¹⁷ الرواية، ص ن

¹⁸ الرواية، ص 178

¹⁹ الرواية، ص ن

²⁰ محمد عزام: شعرية الخطاب السردي، ص 9

²¹ الرواية، ص 51

*معظم الروايات الجزائرية التي تتناول التاريخ لا تعلن عن مرجعيتها التاريخية (على مستوى المتن أو على مستوى الهامش) حتى لا تتقلب إلى بحث علمي تاريخي. إنها تحاول أن تقول التاريخ بطريقة فنية.

²² الرواية، ص 366

²³ عبد الفتاح عثمان: بناء الرواية (مرجع سابق)، ص 222

²⁴ روجر آلن: الرواية العربية (مقدمة تاريخية و نقدية)، ترجمة: حصة ابراهيم المنيف، (د/ط)، المجلس

الأعلى للثقافة، 1997، ص 124

²⁵ الرواية، ص 375-376

²⁶ حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص 55، نقلا عن: نضال صالح:

النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص 216

*تاريخ إلغاء الإنتخابات كان سنة 1992

²⁷ روجر آلن: الرواية العربية (مرجع سابق)، ص 184

²⁸ الرواية، ص 177

* لم يذكر الكاتب هذا التاريخ على مساحة الرواية، و إنما القارئ هو الذي يخمن بأنه المقصود، إذ تعتبر كلمة "هزيمة" الواردة في الرواية دلالة كافية عليه.

²⁹ سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي (النص، السياق)، ص 97، نقلا عن: نضال صالح: النزوع

الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص 213

³⁰ الرواية، ص 131